العنق داخل الانشوطة

قصة

اضطر بعضنا للوقوف . فقد كانت الغرفة عارية إلا من مقعد خشبي طويل واحد ، وكنا نقارب العشرين. كان عبد الساتر مسنداً ظهره الى الجدار قربي، وقد بدا كأنه موشك ان يقع مريضاً على الارض . قلت له ان يجلس على طرف المقعد حيث كنت ولكنـــه رفض . من المؤكد ان ليس الرعب هو الذي كان يحسه عبد الساتر ، فقد كنت افهمه تماماً في تلك الساعة ، ولو كان على الحائط مرآة لرأيت وجهي مثله . ولكنني نهضت واقفاً مع ذلك تاركاً لغيري أن يقعد لأنني كنت واثقاً ان احداً لن يقبل دعوتي، ولكنهم يجلسون اذا رأوا المكان خالياً بطبيعته . إلا أن عبد الساتر لم يجلس ، وانما رأيت في مكاني فتى صغير السن ، استغربت وجـــوده بيننا ، إذ ليس من المعقول أن يكون من الاصدقاء .

بدأت اتجول في الغرفة ويداي في جيوبي ، ولكنني لاحظت ان الجميع سواي واقفون ، واجمون ، ينصتون الى وقع خطاي ، وينظرون إلي . فوقفت قرب عبدالساتر ، واستندت مثله الى الجدار ، وصرنا نتطلـــع جميعاً ، بعضنا الى بعض . لم يكن امامنا شيء في باديء الامر سوى ان نتبادل النظر ويرى كل واحد منا في وجه رفيقه وجهه بالذات . عندما طال الانتظار قليلاً، بدأنا نتبادل الحديث هامسين ، ثم صار الحديث عادياً ، ولكن الصمت عـــاد من جديد بعد ان مرت علينا ساعتان كاملتان دون ان يفتح الباب انسان . كان وجودي هنا أول تجربة لي من نوعها. واعتقد ان بقية الاصدقاء كانوا مثلي وإن لم اعرف اسماءهم جميعاً . فقد كنا كلنا ننتظر بوجوم ما سوف يحدث وكنا جاهلين تماماً كيف ستصرف بالضبط ، إلا ان احداً غيري ، وغـــير عبدالساتر ، واثنين آخرين ما كان ليعرف شيئاً ذا بال . لذلك كنت مطمئناً، فقد كنت اثق بهم.. ولكنني امام المجهول كنت غير واثق حتى من نفسي . فاستدرت الى عبدالساتر احاول ان اقول له كلمة ، ولكنني رأيته يبادلـــني نظرتي ، ثم يغتصب ابتسامة ، وابتسم الآخران لي مثله . فحرت ماذا اقول لهم . انني بحاجة اليهم أكثر مما هم بحاجة إلي .

كان وقت الغداء يقترب ، ولكنني لم احس الجوع . وفي تمام الساعة الثانية عشرة انفتح الباب، ورأينا رجلا مدنياً يقف على العتبة وهو يشملنا جميعاً بنظرة كالحة ، ثم قال بصوت خافت صارم :

– من منكم مصطفى مردنلي ؟ ...

اذن يريدون ان يبدأوا بي ! . تطلـــع الجميع نحوي ، فعرف الرجل غريمه قبل ان انطق بكلمة . فقال لي دون ان اتحرك من مكاني :

– انت ؟ ...

– نعم ..

– اتبعني ...

قالها واختفى . فلحقته على الفور . وأردت ان اقف على العتبة قليلاً كي اقول لرفاقي كلمة ، ولكنه لم يتح لي اكثر من القاء نظرة ولكنها كانت كافية لان ينهار لها بدني ، وتتخلع ساقاي . فقد كان الجميـــع ينظرون الي كمن يساق الى ساحة المشنقة . وكان عبدالساتر من بينهم جميعاً ينظر نظرة لا معنى لها البتة. نظرة جامدة كمن يستقبل قدراً محتوماً، فلا مكان للاشفاق والتوجس. انا اول الخيط ، ولسوف يسحب حتى تجر القافلة كلها، فلمن نخاف ونرثي ؟

قال لي :

– ادخل ...

وفتح لي باباً ، ووقف ينتظرني الى جواره ، ولما كدت ادخل حتى اغلقه خلفي . وهكذا رأيت نفسي وحيداً مع رجل آخر ينتظرني وراء مكتبه .

عرفته على الفور. فحملقت فيه برهة ثم استرددت نفسي وتكلفت اللامبالاة والاحتقار ، ولكنه نهض وطلب الي بصوت رحيم ان اقترب واجلس الى جوار المكتب .

جلست على المقعد الجلدي جلسة المتحدي ، واثبت عيني في محبرة عـــلى المكتب ؛ ثم انتظرت. كان يرتب اوراقاً امامه ، ثم يعيد ترتيبها من جديد . فقد كنت اراه خلسة من زاوية عيني انه يفتش عن الكلمات ؛ فهل أجد فيه الانسان الذي كنت اعرفه ؟ كنت اعلم انه يعمل هنا منذ امد طويل . ولكنني لم اكن اتصور ان يكون هو المكلف بامثالنا . وانني سألتقي به هكذا في مثل هذه الخلوة . أخيراً ، سمعت صوته :

– يا مصطفى .. اريد ان اقول لك كلمتين . وإن لم يكن مـــن اختصاصي ان اقابلك شخصياً او اقابل غيرك . ولكنني لمحتك بينهم وأردت ان انصحك ..

كدت اهتف به ان يكفي نفسه مؤونة الكلام . وان يخفي وجهه القذر بين الاوراق الدنسة التي يكتبها لأسياده. فلست بحاجة الى نصيحة من انسان مثله . ولكنني لم اقل شيئاً . كنت انظر الى المحبرة بنظر ثابت وقد فقدت معناها عندي . فما كنت أراها وأنا أحدق بها وأستمع الى ما يقوله هـــذا الجالس وراء مكتبه . كنت احاول ان اطرد صورة قديمـــة عالقة بذهني لباحة مدرسة قديمة ، والطلاب يتجمهرون، وأنا اصرخ ، وأروح ، وأجيء . ثم اتسلل الى الرواق فأرى باب غرفة المدير يفتح ويخرج منه احد المعيدين يتبعه صديقي رشاد. كنت اسمع من قبل انه كان يشي بنا، وانه كان عيناً للادارة على الطلاب . ولكنني لم اصدق حتى تلك اللحظة التي رأيته فيها خارجاً من غرفة المدير يقوده احد المعيدين ، فيتجاهلني وقد شحب لونه ، ويتسلل من طرف الرواق الآخر .

رفعت عيني الى الرجل الذي يحدثني . كان وجهه شاحباً مريضاً كما كان عندما فاجأته منذ زمن قديم أتذكره الآن كأنه البارحة . لقد تباعدنا بعد رؤيتي اياه في ذلك اليوم ، ولكننا لم نصبح عدوين ، فقـــد كنت ورشاد صديقين متجاورين سنوات . وكان صعباً علي مع ذلك عندما كان يهاجمه احد ألا اقف في صفه مبرراً موقفه ، سانداً اياه . سمعته يقول :

– ماذا افادك ذلك في المدرسة ؟. – انه لا يزال يذكر اذن تلـــك

الايام – لقد كان مجرد شغب أخرك عن رفاقك ، وها قد انتهى من تابع تعليمه العالي من رفاقك فصاروا محامين ، واساتذة ، ومهندسين .. وانت .. ما تزال طالباً ..

انه يسميه شغباً كل ما صنعنا . أما عمله هو فماذا نسميه اذن ؟ قلت له :

– ماذا تريد اخيراً ؟

فابتسم . وكانت ابتسامته جميلة هذه المرة :

– ماذا اريد .. ها انت ذا تعود الى عنادك القديم . كل ما اريده هو ان تخرج بسلام على ان لا تصنع شيئاً يرجعك الى هنا بعد الآن .

كان بودي ان اسأله عن ثمن خروجي بسلام ، ولكنني كنت اعرف هذا الثمن . وتقابلت عيوننا، وخيل لي انه صديقي الذي أعرفه حقاً ، وأنه يفهمني ، وسوف يساعدني ولن يضطرني الى ان اتلوث . انه سيقول لهم هذا بريء لا يعرف شيئاً ، وينتهي كل شيء بسحر ساحر ، فهم ولا شك يحبونه ولا يرفضون له طلباً . وفجأة سمعته يقول لي بلهجة واثقة :

– سيسألونك بعض اسئلة بسيطة ، وسوف تجيب عليها بصدق وصراحة ، وينتهي الامر . انك لا تخون احداً ، فأنت مرغم فيما تصنع . انهم مخيفون اذا لم تتكلم ..

بعض اسئلة بسيطة ! وبعض اجوبة صادقة صريحة .. وينتهي الامر ! حسناً يا صاحبي ، انك تعرف كيف تبرر كل شيء ، وتجد مخرجاً من جميع الازمات وبابسط طريقة . ذلك انك مرغم . أنا اعرف انهم مخيفون، ولكن بالنسبة لك .. ولي ايضاً اذا اردنا الحقيقة .. ولكنني اخاف من هذا الشيء الذي تدعوني اليه اكثر . ان حياتنا هذه كلها خوف دائم، ففيمَ نهادن ؟.

– انني لا اعرف شيئاً فكيف اجيب ؟.

– لا تقل هذا .. انت تعرف كثيراً من الاشياء .. انهم لا يجهلونك ..

كان يبتسم بخبث . لقد خانتني قسمات وجهي متيحة له ان ينفذ الى اعماقي ويحس بمثل الانتصار علي.هل سأرفض الإجابة حقاً ؟ .. واذا ضربوني ؟.. كنت قبل ان يقبض علي لا اتصور نفسي إلا كالعود القوي الريان المنشك في الارض مهما ثنوه الى تحت فانه لا يلبث ان يشب واقفاً من جديد . ولكن مذ ان استقرت علي وجهي اول صفعة في الشارع ثم حشرنا كالبهائم في سيارة نقل صغيرة وطوتنا هـذه الغرف والاروقة الباردة القاتمة ، بدأت تتملكني مشاعر من نوع آخر . كنت في الغرفة لا ازال قوياً ، ولكنني عندما سمعت النداء باسمي سقط قلبي وكدت اهم ألا اعترف باسمي ، او اختبيء بينهم ، او اصنع شيئاً ما يؤخر ما سوف يحدث ، ولكنني أجبت مـع ذلك ، وسرت وراءه كالذاهل المأخوذ . ماذا يضير اذا تكلمت ؟ ان الانسان لا يستطيع ان يتحمل العذاب . نحن بشر .. ولسنا عجاوات .. وشعرت ان في منفرج مرخى . وأن ثقلا غريباً يبهظ اطرافي فأتصور انه لن يتـاح لي تحريك اعضائي اذا ما أردت النهوض . لقد تفككت ، ولم يبق من العود القوي الريان الا الشلو المطروح .

كان لا يزال يتكلم ولكنني لم اكن اعي شيئاً فقد كانت كل جوارحي منصرفة الى سماع ضجة علت برهة ثم ابتعدت وظل عالقاً منهـا بسمعي صوت رجال يتدافعون ، وآخرين يصيحون ويشتمون ، فألى اين اخذوهم يا ترى؟ ولماذا استبقوني من دونهم هنا . بدأت استمع اليه عندما شرع يتحدث عنهم :

– هل سمعت.لقد ساقوهم الى قاعة تتصل بها غرفة صغيرة حيث سيستجوبون.

كدت اقول له : وأنا ماذا ستصنعون بي ؟. ولكنه كفاني مشقة السؤال عندما قال :

– أما انت فسوف تظل هنا حتى نستدعيك . سوف اتركك هنا وحدك.

انهم يحتاجون لي كي اترجم لهم ..

ما كاد يقول ذلك حتى فتح الباب، وظهر شرطي . وقبل ان يفتح الشرطي فمه بكلمة نهض رشاد قائلاً له :

– أنا قادم ..

وخرج صديقي ...

لقد حاول رشاد ان يكون صديقاً . ولكن ها هو يذهب الى خدمة اسياده الجلادين . لا .. ليس هو الصديق .. وإنما هم اولئك الذين ذهب الى لقائهم كي يمروا امامه واحداً واحداً مرنحين من الاعياء في القاعة المرعبة ، ويرفضون ان يبوحوا له بشيء..

وفجأة بزغت فكرة بشعة كما تكتشف احياناً ثقباً حفره فأر في جدار صلد . ما ادراني انهم لن يتكلموا . لقد بدا عبد الساتر كالمريض . فلماذا اقاوم انا وحدي ؟

بدأت اتطلع حولي . لم تكن الغرفة مترفة . ولكنها كانت مريحة. وكان لها بابان . الاول هو الذي دخلت وأطل الشرطي منه .. والثاني .. وقفزت الى رأسي بارقة كما يضيء صاروخ ساطع يشق عنان السماء المدلهمة . لمـاذا لا احاول الفرار من هذا الباب الثاني ؟ لماذا لا اجرب فتحه عـلى الاقل لعله يقود الى الشارع مباشرة ..

ظلت اكثر من خمس دقائق وأنا مسترخ في مقعدي كالمشلول ، لا اجرؤ ان انهض واجوس في الغرفة . انهم يراقبونني من مكان ما ، فاذا تحركت فهموا ماذا اريد وثبتت التهمة علي . وبحركة بطيئة رحت اجول بعيني في كل زاوية وثقب . لم يكن هناك مكان صالح لمراقبتي . لقد كنت واهماً .

نهضت . وتثلجت اطرافي . كنت اقترب من الباب وأنا اسمع دقات قلبي واضحة ، فأتجلد ، واحاول ان اتكلف اللامبالاة اذا دخل احد وفاجأني على هذه الحال ، فأقف ، وانظر الى صورة منظر طبيعي معلقة على الجدار وأجرب ان اتأمل تفاصيلها . انني لا اريد الهرب.. انني اتفرج فقط بامعان على صورة في الجدار .. ولكن قلبي اللعين كان يضرب بقوة . ومن بعيد سمعت صدى خطوات. وفي قفزة واحدة كنت في مقعدي . ولكن الخطوات تجاوزت الغرفة ، الا انني ما تحركت بعدها قط .

كانت ساعة الجدار امامي مباشرة ، فبدأت اعد دقاتها ، واوازن بينهـا وبين دقات ساعة يدي . ها هي تقترب من الواحدة ، ولم يأت احد . لعلهم سيتركونني بلا استجواب . وشملني فجأة ذعر جديد . ماذا سيفكر اصدقائي بي وقد رأوني اخرج من بينهم ثم يساقون وحدهم الى قاعة رهيبة حيث ينتظرهم رجال عتاة كزبانية الجحيم ؟ لقد استطاع الوغد ان يجرني الى حمأته . انه الآن معهم ، وسوف يلفق عني الاكاذيب امامهم . وسوف يصدقونه . انهم وحدهم يتعذبون . امـا انا ، فلست منهم بعد ان خلفتهم ورائي في الغرفة . وعندمـا نتلاقى ذات يوم في الطريق سوف يشيحون بوجوههم ، وقد يبصقون على الارض .

وقف عقرب الساعة . انه لا يريد ان يتحرك . متى يأتون فيأخذوني . استقر اخيراً العقرب الصغير على الرقم واحد ، والعقرب الكبير على الرقم اثني عشر ، ثم بدأ الكبير ينحدر الى اليمين .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. اربعة .. خمسة .. ستة .. واحدة ونصف .. ماذا يصنعون بهم . انني لا اسمع اصواتاً . وفتح البـاب ، وقفزت انا واقفاً .

كان هو . وكان وجهه مخيفاً رغم الابتسامة التي حاول ان يخفي بها تجهمه :

– لم يتكلم احد سوى فتى صغير السن قال انه رآك في اول الصفوف . لقد بت وحدك الآن الذي يعرف كل الاسماء، تعال الحقني واصنع كما قلت لك.

وحدي الذي اعرف .. وحدي .. كنت امضغ هـذه الفكرة وأنا امشي وراءه كمن يمشي في كابوس . كانت تطالعني عند كل منعطف سحنة ممتعضة حاقدة ، فتصورت مـاذا كانوا يصنعون بي لو لم يكن هو معي . فأسرعت الخطى مقترباً منه كأنني احتمي به ، ثم وقفنا امام احد الابواب ، ودخل وهو يشير لي ان اتبعه .

دخلت وراءه . كانت الغرفة صغيرة ،فيها طاولة مكتب صغير يجلس وراءها رطي برتبة وكيل لم يرفع نظره لي ، والى يمينــه يقف شرطي مسلح معه خيزرانة طويلة يلويها بين يديه . وكان ضابط برتبة « ليوتنان » يجلس على حافة المكتب وهو يتحدث بفرنسية سريعة كأنه غاضب لشيء ما .

ما كدت ادخل حتى اكتسحني الضابط بنظرة نافذة ، ثم تبادل وصديقي بالفرنسية بعض الكلمات ، فهمت بعضها ، وفاتني فهم البعض الآخر . فقـد كانت لهجته سريعة جداً لم استطع اللحاق بها .

طلب الي الضابط ان اجلس على كرسي في الزاوية امام المكتب ، ثم سألني هذا السؤال :

– لماذا اشتركت بالمظاهرة ؟

لم اكن مهيئاً جواباً على مثل هذا السؤال . كنت منتظراً ان يسألوني عن بعض الاسماء . أما ان اسأل لماذا اشتركت فأمر آخر بهرتني بداهته . صحيح . لماذا اشتركت بالمظاهرة ؟ هذا ابسط وأول سؤال يجب ان يتبادر الى الذهن . هل اقول له انني اشتركت بها لأنني اكرههم ، ولأنني احب بلدي ، ولأنني اتمنى طردهم ، ولأنهم خداعون دخلاء ، ولأنهم .. ولكنني في تلك اللحظة بالذات لمحت بابا صغيراً جانبياً مغلقاً ، وسمعت من ورائه اصواتاً مبهمة . خيل لي انهم يضربون احد النـــاس وانه يبكي ويتوسل اليهم ان يكفوا عن ايلامه . وضرب الضابط المكتب بقبضة يده وقال :

– تطلع هنا .. لا تنظر الى هناك..اجبني... لماذا اشتركت بالمظاهرة ؟

وسألني رشاد وراءه بالعربية نفس السؤال ولكن بنبرة اهدأ . قلت :

– لقد رأيتهم خارجين يهتفون،فأعجبتني هتافاتهم والشعارات التي يحملونها، فانضممت اليهم .

قلت هذه الجملة محاولاً افهامهم انني اشتركت مصادفة،فاذا نجحت في ادخال هذه الفكرة الى رؤوسهم نجوت من الاسئلة الاخرى الاصعب .سكت وأنا انتظر سؤالا آخر . ودار حديث قصير بالفرنسية بينهما لم افهمه ، ثم سألني الملازم اسئلة متلاحقة لم افهم منها غير هذه الكلمات : دبروا المظاهرة ... الحجارة ... مكان ... وعندما ترجمها لي الآخر بعربية هادئة استطعت ان افهم ماذا يريد :

صدر حديثاً

أشياء صغيرة

بقلم

سميرة عزام

الوان بارعة من القصص الاجتماعي الرفيع

دار العلم للملايين

– ما هي اسماء الذين حرضوا على التظاهر ؟ ومن هم الذين رشقوا دار المفوضية بالحجارة ؟ وهل لكم مكان خاص تجتمعون به خارج الجامعة ؟...

لبثت حائراً امام هذه الاسئلة المتلاحقة لا اعرف كيف اصنع . انه يعلم اذن انني من المنظمين ولا بد انني اعرف الاجوبة الصحيحة التي يريدونها . ولكنني لبثت زائغ العينين لا اتكلم ، فصرخ الضابط من جديد بي مرة واثنتين ، ثم رأيته فجأة يقبض عـلى شعري بجماع يده فيشده بعنف وهو يسألني اسئلته المتلاحقة ورأسي يتخلع في يده ، وأنا احس ان خصلات كاملة سوف تخرج بين اصابعه . وعندمـا لم انطق بشيء بدا مفاجأ كأنه لم يكن يتصور أنني سأقاوم ، مثلهم على الأقل ، فلعل رشاد اقنعه انني سهل ، وإلا فهل كان يسمح له ان يدعني انتظر في غرفة المكتب . كان هذا ظاهراً، فان الضابط التفت اليه صارخاً بلهجة تعنيف واضحة ثم ترك الغرفة فجأة واغلق الباب خلفه بشدة . وهكذا خلوت الى صاحبي من جديد . ولكن كان معنا اثنان آخران في هذه المرة .

اقترب مني ثم جلس على حافة المكتب كما كان الضابط جالساً وبدأ يتكلم . كنت استمع اليه دون ان ارفع عيوني ، وعندما طلب الي ان انظر اليـه رفعت وجهي ، وما كادت عيوننا تتلاقى حتى فهم هو على الفور انني لن اعبأ بكلماته ، كما فهمت انا بدوري انه نفض يديه مني تمامـاً . إلا ان شيئاً آخر حيوانياً اخافني في نظرته ، فلقد بدا كجلاد شامت لم يستطع إقناع المحكوم عليه بالاعدام ان يضع له الانشوطة بنفسه ، فما كان منه إلا ان تعلق بقدميه يشده الى تحت متشفياً ، مستعجلاً له الموت .

التفت رشاد الى الشرطي المسلح واشار له إشارة خفيفة ، الا انني لمحتها ، وما كاد يقترب هذا مني حتى كدت اتداعى واهتف ضارعاً انني بريء ، فقد كان في مشيته نحوي كمن يريد التخلص نهائياً من شخص مزعج . ولكنني لم اصرخ ، ولعلني ما وجدت تلك الصرخة ، فأردت ان اقول كلمة ما اواسي بها ذعري فلم اجد غير قولي لهم :

– لقد قلت لـكم كل شيء .. انني لا اعرف اسم احد ..

فاطلق رشاد حشرجة من بين اسنانه فهمت منها قوله :

– خذه .. واجعله يتكلم ..

اين سيأخذني ؟. نهضت واقفـاً بلمسة من يد الرجل المسلح ، ولكنه لم يكتف بذلك وانما لطمني على وجهي فجأة ، ثم سبني ، وضربني بخيزرانته في جنبي ، وصرخ بي ان ادخل من الباب الصغير .

حدث كل هذا في ثوان. فبدا كأنه شيء لم يقع بالفعل . ولكنني وجدت نفسي اتجه الى الباب الصغير كأنني هارب . ولكن الى اين ؟ .

هناك رأيتهم . لم يكونوا كلهم هنـــاك . ولكن عبد الساتر كان بينهم ، مكوماً على الارض ، دامي الوجه ، مسنداً ظهره الى الحائط ، وهو يتطلع امامه بذهول . فبدا كأنه لم يرني ، اذ لم يلتفت نحوي . حاولت ان اقترب منه هاتفاً باسمه كي يعرف انني هنا ويثق انني ما زلت واحداً من الجماعة، لكن رجلين ضخمين في ثياب عسكرية برزا امامي بغتة ، واخذني كل من ذراع ثم شداني اليهما بعنف وهمـا يتراجعان الى الوراء ، فسقطت وظلا هما يمشيان ويسحباني وراءهما على الارض . وفجأة ، وبحركة واحدة رأيت نفسي واقفاً بينهما ، ثم تركني المسك بيدي اليمنى وبدأ الثاني يلكمني في وجهي وصدري.

سقطت على الارض بعد لكمتين ، ولكن الثـاني انهضني على الفور ، وصفعني على وجهي صفعة مدوية طاش لها رأسي،ثم شرع الاثنان معاً يضربانني كيف خطر لهما وهما يمنعاني من السقوط بـين لحظة واخرى ، ولكنهما لم يستطيعا ذلك فقد تهاويت اخيراً وتشبثت بالأرض لا اريد ان اقف . ومـا كادا يفهمان ذلك حتى شعرت بالم « عظيم » في خاصرتي اليسرى . فقد ركلني

على الحدود

اماه . . .
« ما بك يا بني ..؟ أكنت تحلم ؟.. ما دهاك .. ؟
الليل خيّم في الحقول ونام حتى السامرون
الليل خيم والسكون ؛
نم يا حبيبي فالرفاق ، رفاق دربك نائمون
ما زلت تحلم .. لا تخف .. الكل يا روحي فداك »
اماه .. أغمضُ مقلتي التعبى فترهبني الحدود ،
اماه .. صوت ابي يدوّي في الحدود . .
ومزارعِ الزيتون والحقل المخضب بالدماء ؛
اماه ، يقلقني اليهود ،
اني اراهم يزحفون على الحقول ويرقصون ؛
اماه ، ها هم يرقصون ،
« نم .. يا صغير ..!! ابوك والحقل المخضب بالدماء ..؟
ماذا دهاك ؟.. ابوك ، والجيران حولك ، والجنود ..
بحقول قريتنا الحبيبة يعملون .. ويحرسون ؛
ما زلت تحلم .. لا تخف . . أالله ما اقسى رؤاك ، » !

★

الليل خيم في البيوت الحالمات وفي الحقول ،
والصمت اطبق غير طفل ما يزال ..
سهرانَ ، تُرهبه الطيوف الرابضات على الحدود ؛
اماه .. ها هم يهجمون ! !
الموت .. النيران .. اصوات المدافع يا إله ؛
قصفاً .. وتنهار البيوت ،
قصفاً .. وينقضُّ الجدار على الجدار . ! !
قصفاً .. وتنهمر الدماء ، دماءُ قوم ابرياء ؛
اماه .. يصهرني اللهيب
اني احسُّ ، أحسُّ في صدري اللهيب ؛
« لا يا حبيبي .. لا تخف .. لا شيء يلهب جانحيك ،
ما زلت تحلم .. لا تخف .. واشدُدْ لصدري ساعديك ؛»
اماه .. اين ابي ..؟ رفاقي ..؟ اين حراس الحدود ؟
اماه .. ها هم يَقْدمون ، هم اليهود .. هم اليهود ؛
لا .. لن اموت .. ولن اموت ؛
لن يقتلوني .. لن اموت ؛
اَو ما يزال جنودنا وابي وجاري يحرسون .. ! ! ؟ »

بغداد

محمد جميل شلش

احدهما ، وخرجت من فمي آهة مخنوقة ، وسمعت واحداً يسألني في اذني وأنا منبطح على الارض :

– هل ستتكلم ؟

كان الضرب قد هدأ . رفعت رأسي فوقعت عيناي اول ما وقعتا على عبد الساتر . كان ما يزال في جلسته ، ولكنه كان ملتفتاً نحونا وهو ينظر إلي ولا شك من خلال اجفانه نصف المنطبقة ، فهل كنت سأتكلم لو لم يطلع ذلك الوجه الدامي امامي بعينيه المنطبقتين ، فتمسكان ، على ضعفها ، بهذه النظرة الميتة عزيمة صديق توشك ان تتصدع .

قلت وأنا اتطلع في عيون عبد الساتر :

– انا لا اعرف شيئاً ..

رأيت نفسي واقفاً من جديد ، وقد بدأت اترنح بين اثنين من المردة. وقد بدا لي انني سأموت حقاً . لقد تمنيت الموت في تلك اللحظة ، وما حسبته قط كان بعيداً عني كثيراً وأنا اتطوح على ذلك البلاط البارد اكتم اهات ثور يشخب دمه .

لم يكن الوجع وحده هو الذي احس ، فقد بدأت افقد احساسي به . ولكن ضعفاً لا يوصف كان يتملكني ، فيخيل لي لو انهم سألوني في تلك اللحظة اي سؤال ارادوه ، بانني مجيب حتماً عليه كآلة حاكية لا تملك ذرة من الارادة . ولكنهم كانوا لا يكادون يقفون عن الضرب لحظة كي يسألوني سؤالهم الخالد حتى اقول لا ، او لا اقول شيئاً البتة . ثم نسيت حتى عبد الساتر اذ لم اعد املك القدرة على التذكر نفسه، فقد اجتاحني إعياء اقوى من الكلمات التي كانوا يريدون سماعها . وبدأت الاشياء تعيم في ناظري ، ولكن الماً حاداً في رأسي ومعدتي كان هو الذي يمنعني ولا ريب ان افقد وعيي ، فلو انه اغمي علي في تلك اللحظة، اذن لتخلصت واسترحت . ولكنني كنت واعياً كل شيء ، حتى رأيت شبح رشاد فوق رأسي يقول لهم شيئاً ، ثم رأيت الضابط الى جواره يصرخ به كأنه كان يعنفه لأنهم اشتطوا في تعذيبي حتى لقد سمعت كلمة الموت واضحة في صراخه ، فهل كان ذلك الغريب يخشى ان اموت ولم يخشَ ذلك صديقي القديم ؟

كنت مستلقياً على ظهري اراهم فوقي متجمهرين . وكان الضابط لا يزال يصرخ . وكان رشاد يتطلع إلي وهو يصر على اسنانه كأنهم فوتوا عليه فرصة تعذيب نادرة . آه .. يا صديقي القديم .. لقد خنتك امام سيدك ، فقد كنت تأمل ان لا تكون وحدك في الحمأة امامه ، فوجب ان تشد قدمي الى تحت بعد ان حرمتك ان تضع لي انت الانشوطة في عنقي. في تلك اللحظة شعرت ان الاصوات بدأت تتضاءل ، وانني استريح . فوددت ان التفت كي ارى عبدالساتر مرة اخرى ، ولكنني لم استطع الالتفات .. كانت الاشياء تختلط في دوامة هائلة شرعت تبتلعني .. وشعرت انني ابتعد عنهم .. وابتعد .. وانني ..

شوقي بغدادي

من رابطة الكتاب السوريين